

حقيقة سؤال الأقلية في علم الاجتماع

Regionalization question and sociology reproduction

نصيرة بلبول

¹ جامعة الحلفة (الجزائر)، n.balboul@univ-djelfa.dz

تاریخ القبول: 2026/01/28

تاريخ الاستلام: 2025/12/15

ملخص:

تتأسس مقومات الدراسات الاجتماعية على المناهج والنظريات العلمية كباقي العلوم الأخرى، وقد ساهمت في إثراء حقول المعرفة، غير أن المبعث والمسار التكويني لعلم الاجتماع الذي يغلب عليه الاتجاه الغربي سمح بنمذجته وفق بناءات وبراديجمات صاغت معطياتها من واقع مجتمعاتهم بما تحتويه من سمات وخصوصيات تشكله تتماشى ومعطيات المجتمعات الغربية، وبالموازاة جاءت الدراسات الاجتماعية في المجتمعات العربية كامتداد لهذا النسق المعرفي الذي يعتبر المصدر الأساسي لعلم الاجتماع ووفق عملية ماثقة معرفية غير أن هذه الدراسات أقحمت السوسيولوجيا في مأزق حقيقي، وذلك عندما تجاوزت طبيعة المجتمعات العربية التي لها ما يميزها ويصنع خصوصيتها المختلفة عن المجتمعات الغربية، لينتج جدلا معرفيا يبحث عن الكيفيات والحيثيات التي يمكن من خلالها استيعاب الاختلاف واحتواء الخصوصيات.

الكلمات المفتاحية: البحث العلمي ، النسق المعرفي ، الإيديولوجيا ، التثاقف ، الراديغم..

Abstract:

The foundations of social studies are based on curricula and scientific theories, like all other sciences. and have contributed to enriching the fields of knowledge, but the mission and the formative path of sociology dominated by the Western trend allowed its modeling according to paradigms and constructs which data were formulated from the reality of their societies with the features and The peculiarities that forms in line with the data of Western societies. In parallel, social studies in Arab societies came as an extension of this cognitive pattern, which is the main source of sociology and according to a process of epistemic knowledge. However, these studies have plunged sociology into a real dilemma, and that is when it exceeded the nature of Arab societies that have what distinguishes them and makes their characteristics different from societies, to produce a knowledge controversy looking for the modalities and ways and means by which the differences can be understood and the peculiarities contained.

key words : Scientific Research, Cognitive format, Ideology, Acculturation, Paradigm..

١. مقدمة

البحث عن المعرفة غاية العلوم وتأتي نظرياتها ومناهجها وفق إيديولوجيات تسير نحو هذا المقصد ومجموع المساهمات على اختلافها تصب في ذات السياق، مما أنتج كمًا معرفيًا أصبح في مجمله يبحث عن تأطير علمي أكاديمي واضح المعالم يناسب هذه الانتاجات المعرفية داخل وسط حققت فيه منتجات المعارف مراحل متقدمة، وعلى اختلاف المجالات والمحاور العلمية المتداولة يبقى للمجتمع أبعاده الحاضرة التي تلامس الواقع، وبهذه الصورة يمكن أن نستشف أن العلوم الاجتماعية ليست بعزلة عن هذا الحراك العلمي والنمط التقدمي المتغير، أين انتقلت خلالها العلوم من حالة الكليات إلى حالة التخصصات التي وصلت حد النانو وتوسعت دائرتها في مساع من أجل العمل على المواقب، مقابل هذا التحرك ازداد بروز ما يُعرف بأزمة علم الاجتماع، وساهم استعمال نظرياته ومناهجه المستنبطة أساسًا من الدراسات والمجتمعات الغربية على المجتمعات العربية في ظهور اختلالات وفجوات معرفية، تناولتها بعض الدراسات والأبحاث بكثير من التحليل والمتابعة لما تعكسه من أهمية، مما ترتب عنها ظهور الطروحات التي تدعو للأقلية في علم الاجتماع كحل لهذه الأزمة المعرفية، لذلك جاءت تساؤلات كثيرة هدفها البحث في السبل التي يمكن الوصول من خلالها إلى تناولات سوسيولوجية تتطابق ومعطيات المجتمعات العربية، وقبل الخوض في هذا التوجه تستوقفنا الإشكالية التالية: هل يوجد فعلاً أزمة في علم الاجتماع؟ وأين هي مكان هذه الأزمة؟

هدف الدراسة

تقوم الدراسة بالعمل على تفعيل نقد ابستمولوجي للتناولات السوسيولوجية وخاصة تلك التوجهات التي انتقدت علم الاجتماع بصفته علما غريبا غريبا عن مقومات المجتمعات العربية والتي لا تتوافق وواقع حياتنا وهذا يأخذنا إلى العمل على الاقتراب من تحديد معالم الأزمة الحقيقية في العلوم الاجتماعية بعيدا عن الكيفية التي يتم تداولها طبعاً دون إغفال التيارات الأخرى من دعاة الأسلمة والعربنة والعلمنة، من أجل الوصول إلى مقاربات من شأنها التقدم بالبحث العلمي وضبط نتائجه وتجاوز نقاشات الأزمة وطروحات الأقلية وغيرها إلى توظيفات نحتاجها في واقعنا من أجل المشاركة في عملية التغيير أو على الأقل متابعتها بشكل صحيح.

الأقلية بين الحتمية المعرفية والتوجه الايديولوجي

أمام الحاجة لإنتاج أسس معرفية حقيقية والوصول إلى مكان الظواهر المستمدة من واقع المجتمعات العربية والمتوافقة ومعطياتها وفق إسقاطات أسس علم الاجتماع التي لا تحيد عن الواقع فإن المسعى الذي نبحت من خلاله عن إعادة توظيف هذه المكتسبات لا تخرج بأي شكل من الأشكال عن القواعد العامة للعلم ومنهجه ولا شأن له عما هو خارج هذا السياق، ويقوم هدفه على تكريس بناءاته الأساسية أثناء عملية البحث العلمي، والاتجاه نحو استثمار فعال للتكامل المعرفي والثقافي المنظم بين مختلف العلوم وحتى داخل العلم في حد ذاته، والعمل على تفعيل الطروحات العلمية التي تسير به نحو إنتاج معرفي من شأنه الوصول بالدراسات السوسيولوجية إلى تناولات تستوعب حقيقة المجتمعات ككل بما فيها المجتمعات العربية وما يميزها من خصوصيات لأنها ليست خارجة عن هذا المجال.

إن المطلب الأساسي لكل التحليلات والدراسات العلمية هو تحديد معالم واضحة لا تترك مجالاً للشك أو للفجوات وتكوين رأس مال معرفي، ويعتبر هذا الهدف هو المحور الذي تسعى لتحقيقه العلوم عامة والعلوم الاجتماعية خاصة، وقد شخص توماس كون الذي اجتهد في مجال تطوير العلم المعوقات التي تواجه البحث الجديد في النقاط التالية: أولاً نقص في الاتجاهات المنهجية، كما تبين أن وجهات نظر متنافسة عديدة كلها علمية لها مع هذا طرائق غير متوافقة في رؤية العالم، ثانياً غالباً ما يوجد عنصر تعسفي مركب من الشخصي والحادث التاريخي في المعتقدات لمجتمع علمي في زمن ما، ثالثاً هناك مجموعة من المعتقدات المسلم بها تقود

البحث مع أجوبة عن بعض مجموعات الأسئلة. وما يزيد من تعقيد البحث في العلوم الاجتماعية، هو دور شخصية الباحث في حد ذاته إذ له تأثير نحاول أن نعالجه في علم الاجتماع بتبني منهج الموضوعية والعمل على دراسة الظاهرة الاجتماعية كشيء وهي أول القواعد السوسيولوجية التي قام إيميل دوركهايم بتوضيحها، ومن بعده كل علماء الاجتماع، لتتيح توسيع الأفق العلمية توسيعاً يتجاوز العقبات البحثية، لذلك فإن تفعيل التكامل المعرفي يزيد من تأسيس الموضوعية، كما يُعتبر الخيار الأمثل الذي بإمكانه دفع عجلة التقدم وتحقيق النجاحات المتواصلة كترجمة لقراءاته العلمية الصحيحة واجتهاداته في سبيل تحقيق هذه المرتبة من التقدم والتطور العلمي.

أمام السعي لتطوير العلوم اتجهت المساعي الفكرية نحو تحقيق تنمية لكل المجالات والعمل على البحث في كيفية تواصلها مع بعضها واستمراريتها، وللعلوم الاجتماعية الدور الكبير في تخليق ووضع المشاريع التنموية ضمن السياقات المناسبة، حيث تصدر التنمية البشرية والتنمية الاجتماعية القائمة باعتبارها الرأسمال الأهم ضمن مخططات واستراتيجيات التنمية التي أصبحت لغة العالم، وأدى هذا التطور البحثي إلى رفع سقف مطالب الأقلية للتوظيف الأمثل لما تحقّقه المعرفة السوسيولوجية، فجاءت دواعي الأقلية والتأكيد على ضرورتها كواحدة من أبرز نتائج التطور العلمي، دون إهمال جذورها الفكرية المستمدة من قراءات نقدية وإصلاحية شكّلت معبراً لما بعدها، فواقع البحث العلمي يفرض شروطاً لا بد أن تتم بالشكل الصحيح لتقبل الخوض في مجاله، وهذا ما يفتح الباب في البث بخصوص جدلية أزمة علم الاجتماع كخطوة سابقة لسؤال الأقلية.

إن التغير في النمط المعرفي وسياقاته ترجمة لتجاوز مراحل معرفية وإقباله على مراحل جديدة، وهي خطوة تأتي بعد تراكمات معرفية كان علم الاجتماع حاضراً فيها بكيفيات مختلفة بسبب تعقيد طبيعة العلوم الاجتماعية النابعة من ارتباطه بكل المجالات على اختلافها من جهة وارتباطه المباشر بحركية المجتمع واهتمامه بكل قضاياها من جهة أخرى، غير أن جدلية ملائمتها للمجتمعات العربية برزت واضحة عندما بدأت تطبيقاته تخضع لها دراسة المجتمعات العربية وفق معطياتها، أين تم استقطاب العلوم الاجتماعية وتوظيفها وفق معايير المجتمعات الغربية التي تأسست من خلاله، وهنا يصبح سؤال الأقلية باعث حقيقي للتغير في تناول السوسيولوجي ويصب في إطار المنهج العلمي القائم لمعالجة البناءات وفتح الحديث عن آفاق جديدة من شأنها مواكبة تطورات العلوم والمساهمة فيها.

المتطلبات السوسيولوجية نحو معالم الأزمة في علم الاجتماع

إن الاتجاه العام نحو سؤال الأقلية في علم الاجتماع قد يراه البعض بداية بعث لعلم اجتماع يخدم معطيات المجتمع العربي، لأن الاهتمام بواقع المجتمعات العربية وفق ما يقتضيه البحث العلمي والشعور بأزمة في التناولات السوسيولوجية تدل على مآزق حقيقي بخصوص العلوم الاجتماعية وهو ما يقتضي المعالجة والتتبع، وهي حالة ضرورية لا يمكن أن تتأتى دون أن تأخذنا إلى الاستشعار بالأزمة وفهمها فهماً عميقاً لمعالجتها، فهي قراءة مؤداها أن النسق المعرفي بدأ يخرج عن كلاسيكيات البراديغمات الموضوعية والتي جاءت بما يناسب طبيعة المجتمعات الغربية التي تأسست داخله لتكوّن هذه الخصوصية إدراكاً معرفياً جديداً يسعى إلى التغير، على صعيد مقابل انطلق مسعى يقوم على خلفية ما جاءت به مختلف العلوم التي تؤكد ضرورة تفعيل واستحداث الآليات المناسبة لمواكبة التغير وتعمل جاهدة في ذات السياق.

يطلق توماس كون "على العلم في الفترة التي يسود فيها النموذج القديم العلم السوي" "العلم العادي" أما عندما يظهر نموذج جديد الذي ينشأ بعد الكشف العلمي الذي يطلق عليه كون العلم الثوري أو الشاذ و هو ثوري أو شاذ لأنه خرج عن المتعارف عليه في ضوء النموذج السائدⁱⁱⁱ، فهو يعتبر أن البحث قائم على واحد أو أكثر من الانجازات العلمية السابقة، انجازات يعترف بها مجتمع علمي خاص لفترة ما بأنها هي من يقدم التأسيس

لتطبيقها لاحقاًⁱⁱⁱ، ويستمر النموذج سائداً إلى غاية ثورة علمية تقحم النموذج الجديد، إن هذا الخلل في التوازن بمثابة تصدير لحركية في الايديولوجيا السوسيولوجية التي أصبحت تقتضي إسناد مبادئ مأخوذة من الواقع العربي بكل تعقيداته، وعليه فالاجتهاد في بلورة أسس معرفية جديدة أصبح مطلباً يقتضيه علم الاجتماع ككل.

يعاني علم الاجتماع في العالم العربي أزمة حقيقية جعلت النقد مجالاً واسعاً وفضفاضاً يحتاج إلى توليفات مضبوطة تكشف عن الأسباب والمآلات وربما الاتجاه نحو تسطير البدائل، فالانتقال بالعلم من مرحلة نظرية إلى مرحلة نظرية أخرى هي استجابة للتراكمات المعرفية التي تستدعي المتابعة، أن هذه الحركية تعتبر الطابع العام للعلوم الاجتماعية لتصبح عملية البحث العلمي تتطلب المزيد من الدقة بالموازاة مع المواضيع الاجتماعية المطروحة، فالتغير كطبيعة إنسانية ممتدة إلى النسق الفكري والإطار المعرفي في حد ذاته لتشكل البدائل منطلقات قد تحيد عن تلك المعارف الموجودة أو تختزلها في حلقة وصل تقودنا إلى معارف جديدة، وإن حافظت على شكل قوالها، إلا أن عملية التغير تظل منتظمة ومستمرة، وعليه نتوقف أمام جزئية مفصلية حول إذا ما كان الارتباط بالتغير يقصد به الحالة العامة والقواعد الموضوعية لعلم الاجتماع أو يقصد به يقصد به الحالة المرحلية وما يتم تداوله من حيث مجالات التطبيق واختلاف التركيبة والمعايير الموضوعية لقواعده وأسسها الأولى، وبمعنى آخر هل نتجه نحو تغيير عام أم تغيير جزئي، وهل هو خاضع لمتطلبات تفرضها الحتمية العلمية أم متطلبات تفرضها الحتمية الايديولوجية!

الكثير من التساؤلات مطروحة وهي نابعة من عملية الأخذ بنمط معرفي بعينه يخلق جدلاً في بناء العلوم الاجتماعية لأنه يعتبر تمييزاً لم يأخذ شرعيته إلا من إجماع نخبة، قد يعارضها إجماع نخبة أخرى خاصة وأن طبيعة التفكير العلمي والميكانيزمات المعتمدة في البحث العلمي حققت تراكمات معرفية استطاع أن يصل إلى حد تكوين منظومة، وهذا بعيداً عن تناول كيفية مقارباتها للواقع وتمكنها استنطاق الظاهرة من عدم ذلك، حيث استطاع هذا الكم المعرفي أن يتخذ لنفسه دوائر ومساحات جعلت من هذه المنظومة المعرفية الأرضية التي أصبحت قادرة على دفع الباحث لاعتمادها معياراً تشكل له منطلقات تساهم في بلورة إيديولوجية معينة قد تختلف قليلاً أو قد لا تتوافق تماماً مع منطلقات الباحث الذي سبقه بعقود من الزمن لغياب هذا النسق المعرفي المنتج الذي ساهم في توجيهه، ومع هذه الاختلافات تبرز جدليات تمثل تيارات مواكبة وأخرى معارضة، وتساهم في عملية التغير لهذا النسق المعرفي ليجد أن من أهم تمظهراته المستحدثة محاولة إعادة بناء سوسيولوجي بإمكانه استيعاب العالم الجديد بصورة أشمل وأدق، هذا الاعتماد هو خوض في موضوع البراديغم أو النسق المعرفي المعتمد كأبرز محاور الأسس العلمية.

وجود البراديغم لا يتضمن وجود مجموعة من القواعد الكاملة، إذ هو تماثل الشيء من النوع على مشكلات البحث المختلفة والآليات التي تنشأ وسط تقليد علمي، وما تشترك به ليس في كونها تحقق مجموعة من القواعد والافتراضات الصريحة أو الممكن اكتشافها اكتشافاً كاملاً وإنما تشترك في الكيفية، فالبراديغم^{iv} لا يقتضي أن مثل تلك المجموعة الكاملة من القواعد هي مجموعة موجودة، وأن هؤلاء الذين تقوم أبحاثهم على البراديغمات المشتركة هم ملتزمون بالقواعد والمعايير نفسها في الممارسة العلمية، فتشاطر البراديغم يعني تشاطر القواعد، حتى لو لم تكن مفسرة، وإلا فلن توجد مجموعة قواعد كاملة.

غالباً ما يتم اعتماد النسق المعرفي من دون معرفة أو الحاجة إلى الاقتراب من الخصائص التي أعطت هذه الصورة التي تقودنا إلى وضعية معينة هي وضعية براديغمات، ولأنهم غير محتاجين لمجموعة كاملة من القواعد المتفق عليها، فالنسق الذي يعرضه تقليد البحث لا يتضمن حتى وجود مجموعة قواعد وافتراضات في أساسه، وبين خصوصية المجتمعات وثقافتها وطرح موضوع البراديغم في علم الاجتماع الذي يعتبر انعكاساً لحركية العلوم وتغيرها، ويتبلور موضوع الألفية في المجتمعات العربية كجزء يعمل على بث توازنات معرفية في

اتجاه خطى ثابتة إلى إعادة النظر، ويمكن لتحقيق تاريخي أو فلسفي أن يرفع الغطاء بخصوص هذه الفجوة المعرفية، والعمل على تكوين براديغم يتطابق ومعطيات المجتمع العربي يقوم على معارف علمية، تصب مباشرة في بناء البراديغم، والانطلاق نحو تأسيس دعائم فكرية من شأنها إنتاج يسمح بمقاربة مسارات الدراسات السوسيولوجية في الكثير من التقاطعات الواردة والممكنة.

الوعي نحو بداية أزمة علم الاجتماع

إن تفعيل الفكر العلمي يأتي نتيجة استحضار الوعي والإدراك وليس وليد صدفة أو لحظة تكون عابرة، ويمكن القول حسب ما جاء به الجابري أنها "اللحظة التي استنفذ فيها (النظام) كل إمكانياته في تحقيق التوازن الذاتي autoreglage وبدأ يعيش بالفعل مرحلة الأزمة، سواء على صعيد المنهج أو الرؤية... التأثير المتبادل قبل لحظة الأزمة من النوع الذي يدفع من نشدان التغير وتعميق الاختلاف، وبالتالي إلى الميل نحو الانغلاق تأكيداً للاستقلال"^٧. اللحظة الفارقة في التغيير لا تبدأ بتسطير البدائل وتفعيلها لتعيد التوازن أثناء مرحلة الاضطراب كما نتوهم، وإنما هي اللحظة التي نستشعر فيها أن إعادة الرؤية هي المطلب الأبرز من زاوية غير تلك المتداولة لوجود ثغرة ما قد تربكنا فيما يبدو لنا انه المنهج المناسب المعتاد، عندما تُستهلك مقومات "النظام" أو "البراديغم" العلمي وتصبح غير قادرة على الاستمرار بسبب ظروف ومعطيات مستجدة ليصبح الاستشعار بضرورة التغيير وليد وعي مختلف، هذا الوعي لم يضع علم الاجتماع في أزمة، بل أنه استشعر بوجودها وكشفها ولم يقم باختلاقها.

الوعي نتاج حوارات كثيرة مبدؤها تساؤلات واستفهامات دفعت بالمفكر إلى المضي نحو الكشف عن الغموض الذي يلفها، خاصة وأن "النظرية الاجتماعية لا تتكلم فقط عن العمليات والمشكلات الاجتماعية، بل هي كذلك جزء من تلك العمليات والصراعات والمشكلات"^٨، في تكوينها وبناءها وتوجيهها، حيث يصبح من الصعب أن لا تنتمي إلى إيديولوجية معينة.

لا يمكن أن ننكر دور مؤسسات المجتمع ودور مختلف العلاقات التي تربطه بالأفراد وبالجماعات في تكوين شخصية الباحث ومدى تأثيرها الذي تتراوح درجاته وعمقه بحسب ارتباطها بواقعه، فلا يمكن بأي حال من الأحوال القول بالقطيعة بين الفكر "الذي وراءه مفكر" والواقع الذي نشأ فيه، والوعي حلقة من حلقات أعمال الفكر دون الخوض فيما قد يمر به من الاختلافات والخلافات من حيث التناولات والتفسيرات، غير أننا نتفق أنه نتيجة هذه العوامل يتشكل التوجه ليصبح هذا الواقع وحدة معيارية ينطلق منها، أو يصل إليها، أو ينطلق بما فيها، أو بما لا يوجد فيها، في الأخير كلها منطلقات تجعل من هذا الواقع معياراً، ومهما تخلص من الواقع يجد نفسه لم يخرج عن فلك المساحة التي يشملها الواقع.

إن البحث من خلال ما هو موجود ومن خلال امتداده يسمح برصد حقائق الواقع ومن ثم تسهيل مهمة متابعة افرازاته، وهو الأصل في الدراسات السوسيولوجية، والخروج عن هذا الأصل هو الخروج عن السوسيولوجيا، "فالمعرفة تظهر لنا مشوهة أو إيديولوجية، عندما لا نستطيع الأخذ بعين الاعتبار الوقائع الجديدة التي تتطابق مع وضع معين، وهي تحاول أن تتنكر لها عندما تريد أن تفكر فيها بنماذج غير متطابقة معها"^٩. فلا يمكن أن نأخذ جزءاً من الواقع دون اكتمال الصورة، حيث أن هذا المشهد المبتور لا يعبر على الحقائق كما هي فعلاً بل قد يشوه الحقيقة، ولا يمكن مطابقة نموذج بنموذج لا يتوافق معه أساساً فمثل هذه التناولات تحملنا بعيداً عن الواقع، وتغيب ما يمكن أن يتكون من وعي صحيح، بل تجعله رهينة مغالطات وتصنع منه وعياً زائفاً، يدخلنا في مساقات مختلفة تماماً عن تلك التي كان يجب أن تُسطر.

الأزمة المركبة في العلوم الاجتماعية

رغم ما حققه علم الاجتماع من تقدم معرفي إلا أنّ طبيعة العلوم الاجتماعية جعلت منها مادة مرنة يصعب تحديدها وقياسها لتدخل معطياتها وتشابكها مما يجعل المجال مفتوحاً بخصوص هذه العلوم والأكثر من ذلك أن معطياتها مرتبطة بما يتبناه الباحث من أيديولوجية تطبع تكوينه وتفكيره، في الجانب الآخر مثلاً نجد أن العلوم الطبيعية دقيقة جداً^{viii} ومحددة ومستقلة عن الشخص الذي يقوم بعمل الملاحظات العلمية والتجربة العلمية في الفيزياء مثل قياس سرعة الصوت من خلال وسط معين أو قرينة انكسار الضوء ويتعين أن ينتج عنها نفس النتائج بغض النظر عن زمان ومكان التجربة وأيضاً بغض النظر عن الشخص الذي يقوم بإجراء التجربة، أما في حال حصول تلميذين يجريان نفس التجربة الفيزيائية على قيم مختلفة فإن ذلك يعني أحدهما مخطئ أو كليهما، في حين أنه لا يتعين قول نفس الشيء عندما يتعلق الأمر بالعلوم الاجتماعية حين تكون النتائج أقل دقة وتحديد وأكثر غموضاً، فعند قياس السعادة لدى شخص قد تعطينا نفس الظروف نتائج مختلفة بمجرد مرور أيام أو حتى ساعات.

عند الأخذ بالبراديغم العقلاني الديكارتي^{ix} مثلاً الذي يفصل الفاعل عن الموضوع حيث لكل منهما فضاءه، فمن جهة هناك عالم الأشياء والظواهر الطبيعية والاجتماعية تخضع للرصد والتجريب، ومن جهة أخرى هناك عالم من الفاعلين الذين يطرحون على أنفسهم مشاكل تتعلق بالتواصل والوعي والمصير، ومنذ أن تم الفصل بين العلم والفلسفة راحت الثقافة العلمية تنفصل عن ثقافة الإنسانيات وتخضع لقواعد مختلفة تماماً، وتدخلها في مقاربات وجدليات تزيد من تعقيدها. لأن معايير الموضوعية تبقى من أصعب ما يمكن تطبيقه رغم أنها تبدو في التناول.

في الوقت ذاته يتحدث ادغار موران عن آثار البراديغم الغربي الذي أنتج انفصاماً بين عالمين، عالم الثقافة الإنسانية وعالم الثقافة العلمية، هذا الانفصام خلق معارضة بين مجال الروح والقلب والشعور وبين العقل والثقافة والتقنية، بحيث أصبحت القطيعة ما بين العالمين تشهد نزاعاً كان في بدايته منتجا وخلاقاً، لكنه فيما بعد أصبح متأزماً بحيث خلق شقوقاً وصدوعاً في الوعي الجمعي، وهو ما يفتح الطريق لبراديغم جديد بدأ يتشكل، فتغيرات البراديغم لا تحدث إلا بالثورة التي تغير طريقة التفكير وتعديل فضاء العقل، وتصيب البديهيات المعممة في العالم المفكر فيه في صميمه نقداً وتعديلاً وتغييراً، وتظهر التناولات التي تحاول تبرير وظائف البراديغم ونتائجه أمام التناولات الأخرى التي تنتقده وترفضه إلى غاية تعويضه لنجد أن تركيب العلوم الاجتماعية قائم على النقد، وهو ما يضفي عليه صفة التعقيد.

أمام هذه الاجتهادات والبراديغمات المنتجة في الفكر الغربي من أجل مواكبة التغيرات والتطورات، يغيب النموذج العربي ويبقى مجرد مستقبل لما أنتجته وحتى لما ستننتجه الدراسات الغربية التي وصلت إلى مستوى النانو في دراساتها، وتحاول مقابله طرح المنهج التكاملي لتجاوز سقطاته التي اتجهت نحو بداية أزمة جديدة، بعدما كانت في زمن ماض تقوم على محاولات الفصل بين العلوم وتحديد خصوصية كل علم واستقلاليتها، تتعالى اليوم الأصوات نحو طرح التكامل المعرفي كمبدأ منهجي يعيد التواصل بين العلوم ويسهم في تقدمها وتنميتها.

إن الفجوة المعرفية اليوم تكمن في الخطوات المتسارعة للإنتاج الغربي من جهة أمام الوتيرة البطيئة لإنتاجات الفكر العربي من جهة أخرى، والتي يصادفها عدة اختلافات بنيوية ومنهجية، أهمها مبادئ الطرح الذي يقوم على اعتمادات ثلاثية الاتجاهات في الفكر العربي وهي لصيقة به والمتمثلة في: الله، والطبيعة، والبشر، يقابلها الطرح الغربي باعتماده الثنائي المحصور بين: الطبيعة، والبشر،... وهو طرح كان ولا يزال محل نقاشات، ويبدو أن زحف العولمة أصبح يشكل تهديداً حقيقياً لمضمون الفكر العربي، ويقوده نحو عملية مثاقفة معلومة المسار في ظل المعطيات الموجودة في الوقت الراهن.

الخصوصية في العلوم الاجتماعية تقحم شخصية العلماء في البحث العلمي وتجعلهم طرفاً في الدراسة، هذا الطرف الذي اكتسب من التربية والتنشئة والمحيط ومختلف العوامل الثقافية شخصيته، تجعل مجال البحث في علم الاجتماع لا يخلو من المتابعة "فالمثقف لا ينسب إلى ثقافة معينة إلا إذا كان يفكر داخلها، والتفكير داخل ثقافة معينة لا يعني التفكير في قضاياها، بل التفكير بواسطتها"^x، وبين التفكير من الثقافة أو بها نسعى إلى الخروج ببراديجم بإمكانه خلق موازنات تعيد إنتاج علم اجتماع تكاملي في طرحة وفي إنتاجه.

ويؤكد ريمون بودون^{xi} أحد المشتغلين بعلم الاجتماع في فرنسا أنه علم يتميز بدوام البحث عن نفسه، وأن أكثر النقاط اتفاقاً بين المشتغلين به هي صعوبة تحديد علم الاجتماع. لذلك صار الجهد مضاعفاً في العلوم الاجتماعية بسبب طبيعتها من أجل تحصيل المعارف وضبط مناهجه ونظرياته، فعرفت العلوم تغيرات وحققت تقدمات جعلت بناءاته تقوم على أنساق وبراديجمات تحاول في كل مرة تجاوز هذه المعضلة التي تعترضها، عملية البحث في العلوم الاجتماعية مستمرة ليس لطبيعة العلم في حد ذاته وإنما بسبب حاجتنا الدائمة للبحث عن حقيقتنا وعما يدور حولنا وما تمثله العلوم الاجتماعية من ضرورة من أجل هذا الهدف.

الاستنتاج العام

معالجة موضوع الأقلية في الدراسات الاجتماعية أصبحت تتطلب العمل على الخروج من دائرة النقاشات والتساؤلات حول بداية مأخذ الموضوع في حد ذاته، وأصبح هذا الطرح لا يمثل إلا جزءاً من طروحات كثيرة تزيد مساحة مقترحاتها يوماً عن يوم ومطالب المضي في تكريس مشروعاتها البحثية تحت المجهر تحت مسميات مختلفة جاري الدراسة بصورة كثيفة، حيث أن جدليات الضرورة والحاجة والأزمة قد تم تناولها بما يتيح مواصلة المسار وتوفير الأرضية، لتصبح خطوة الأقلية كواحدة من المشاريع العلمية التي بدأت تبلور بعيداً عن المد والجزر الذي يقيمها ضمن مجالات محدودة، لذلك فإن تصنيع القولية العلمية ضرورة وقاعدة معرفية نحو تأسيس قانون ضابط، وهي خطوة منهجية تنظيمية لتفادي البعثرة والعودة من حيث بدأنا وتجاوز اتهامات العقم والعجز.

لابد من خطوات منهجية تسير بنا للأمام ببداية إنتاج المفاهيم الكبرى التي تضمن منطلقات سليمة نحو التفعيل في البناء، ونحو التأسيس لقواعد معرفة بإمكانها بث أقلية لعلم الاجتماع، فعملية إنتاج المفاهيم تعتبر مبادرة للخروج من دائرة النقاشات والجدليات الكثيرة والفضفاضة، والتي تحول دون إعادة إنتاج علم الاجتماع، وضرورة الأقلية والتغيير والمواكبة وكل الأفكار التي يروجها الفكر العربي ويسعى لتطبيقها، إلى إرساء الأسس وتشكيل دائرة معرفية جديدة متقدمة تبحث في الكيفيات، وللمواصلة ضمن مسار متقدم لابد أن يكون فيه بناء مفاهيمي واضح ومؤسس يُشكّل قاعدة علمية، تصنع بدائل واضحة المعالم، تسمح بتقديم ملموس بخصوص طروحات الأقلية

إنّ إنتاج سيوسولوجيا بإمكانها أن تشمل العالم العربي ليس معناه القطيعة مع السوسيولوجيا الغربية لأنها غربية، فلا يمكن تجاوز انتاجاتها وقيمها المعرفية المهمة، بقدر ما يكون الهدف أن نعمل على الاستثمار فيها، وفق تفعيل إطار التكامل المعرفي الذي يسعى لإعادة إنتاج بناء معرفي يستوعب الواقع على اختلافه كما هو وليس كما يجب أن يكون ولا ضرورة خضوعه للرؤية المحددة، كي لا ندخل في منرجات تعتبر اليوم السبب في أزمة العلوم الاجتماعية التي لا تصل بنا إلى حلول جادة ومفصلية في معالجتها.

تناول صياغة أقلية حقيقية لعلم الاجتماع يمكن أن تتأتى عند التخلص من التيارات والأيديولوجيات الغالبة مهما كانت اتجاهاتها وأهدافها بما فيها مسمى علم الاجتماع العربي أو الإسلامي أو غيرها، فعند تجاوز الدلالات التي تحمل في ثناياها مؤشرات قومية خاصة محدودة الأفق والتركيز على البعد العلمي دون سواه يمكن الحديث عن أقلية سوسيولوجية، وتجاوز الانجازات التي لازلنا رهينة لها بأخذ ما يؤخذ وترك ما يترك، فللمجال الزمني معطياته التي يجب احترامها والتأقلم معها أيضاً، وليس في هذا تقليل بشأن ما جاء به غيرنا، وإنما هو دفع

نحو الاستمرارية والمواصلة والخروج من قيد الدوائر المغلقة، التي تحولت إلى عوائق إبستمولوجية تتطلب المعالجة، ومن أجل التقدم العلمي تعتبر المعالجة في القضايا ذات المبادئ الأساسية في المعرفة شرطاً لم يتجاوزه الزمان رغم تراكم المكتسبات لأنها لتزال تحتاج العودة إلى أصول القضايا المعرفية قد يجوز لنا في هذه المرحلة الاستئناس بتسمية الثورة العلمية.

قائمة المراجع

- الجابري محمد عابد. بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط9، 2009.
- الجابري محمد عابد. تكوين العقل العربي. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. دار الطليعة، ط1، 2009.
- باتشيريجي أتول. بحوث العلوم الاجتماعية المبادئ والمناهج والممارسات. الأردن: دار البازوري، 2015.
- عبد المعطي عبد الباسط. اتجاهات نظرية في علم الاجتماع. الكويت، عالم المعرفة، 1981.
- كريب إيان. النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس. تر: محمد حسين غلوم، الكويت: عالم المعرفة، 1999.
- محمد علي ماهر عبد القادر. نظرية المعرفة العلمية. بيروت: دار الطليعة، 1980.
- مغربي عبد الغني. سوسيولوجيا الهوية جدليات الوعي والتفكك وإعادة البناء. لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2007.
- هيلي باتريك. صور المعرفة مقدمة لفلسفة العلم المعاصر. ترجمة: نور الدين شيخ عبيد، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2008.
- Mannheim Karl. *idéologie et utopie*. Librairie Marcel Rivière et Cie, Paris, 1956.